١٠- سيدنا محمد ﷺ
آخر الأنبياء والرسل

يكفى نبينا محمدًا - عليه الصلاة والسلام - فخرًا وسط إخوانه من هذه الكوكبة العظيمة من أنبياء اللَّه ورسله ٠٠ أنه حمل القرآن الكريم الذي أنزله رب العالمين على قلبه ٠٠ وهو أخص معجزات اللَّه تعالى وأعظمها وأصدقها وأقواها، وأبقاها إلى يوم الدين٠

فإذا ما ذكر القرآن الكريم ذكر النبى الكريم محمد - عليه الصلاة والسلام - وإذا ما ذكر الإسلام ذكر نبى الإسلام محمد - عليه الصلاة والسلام - وإذا ما ذكرت الرسالات السماوية ذكر خاتم الأنبياء والمرسلين محمد - عليه الصلاة والسلام -٠

وبخلاف هذه الصفات العظيمة والحميدة فقد ذكر اللَّه تعالى نبيه بصفات كثيرة أخرى، أعظمها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾٠

هذا النبى الكريم بعثه رب العالمين لأجل أن يبصر الناس بأعظم رسالات السماء ٠٠ وهو الإسلام، هذا الدين الذي فيه الخروج من الدنيا إلى الآخرة بسلام، وفيه كذلك كل أمور الدنيا التى ترتبط فى الأساس بعبادة اللَّه وتنفيذ أوامره٠ لأجل صالح الإنسان٠

ولو أخذنا معًا نعدد مآثر ومحامد وصفات هذا النبى الكريم وكذلك دين الإسلام ٠٠ ما وسعنا فى ذلك كل لفائف الورق ولا مداد كل البحار، ولكنها فيوضات ربانية نسوقها على سبيل التذكرة كمدخل مهم للحديث عن ابتلاءات هذا النبى الكريم الذي يقف فى مقدمة كل أنبياء اللَّه ورسله٠

وكان صلى اللَّه عليه وسلم مثالاً يحتذى به فى الصبر والرضا ٠٠ والإيمان بأن كل شىء بيد اللَّه ، ولذلك لم يجزع أبدًا حين ابتلاه رب العالمين سواء فى نفسه حين حكم عليه بأن يكون يتيمًا منذ سنوات صباه الأولى ، ولا فى زوجه التى رحلت أمام عينيه ٠٠ وهى البلسم الشافى لكل مشاكله التى واجهها آنذاك مع كفار قريش لأجل نشر الدعوة الإسلامية حتى أنه يوم رحيلها ارتبط ارتباطًا مباشرًا بما سمى آنذاك « بعام الحزن » فى حياة النبى الكريم محمد - عليه الصلاة والسلام٠

ولقد جزاه اللَّه عن صبره على رحيلها خير الجزاء٠ إذ حدثت معجزة الإسراء والمعراج من أجل التسرية عن نبى اللَّه الكريم٠ وحبيب الرحمن محمد - عليه الصلاة والسلام٠

وكذلك نرى هذا النبى الكريم قد صبر وشكر وحمد اللَّه تعالى ٠٠ حين ابتلاه فى ولده الصغير ٠٠ الذي رحل وهو قرة عينيه ، لذلك فإننا نعتبر هذا النبى آخر أنبياء اللَّه ورسله سواء فى رسالات السماء والكتب المقدسة أو فى تلقى بلاء اللَّه، مع الصبر والشكر وعدم الجزع٠ والاستسلام لقدر اللَّه٠

ولا شك أن الوقوف تفصيلاً على هذه الابتلاءات وظروفها الصعبة التى عايشها النبى محمد - عليه الصلاة والسلام - سوف تكون بردًا وسلامًا على كل المبتلين من بنى البشر الذين يجزعون ولا يصبرون ، ولنا ولهم فى رسول اللَّه أسوة حسنة فى كل مانقل وسجله عنه التاريخ وكتب السيرة والسنة النبوية وعلى لسانه الشريف ، وما نود أن نشير إليه فى هذا السياق هو ما سبق وأشرنا إليه عند الحديث عن نوح عليه السلام فيما يخص ما يعترض طريق الأنبياء والرسل من صعوبات قاسية يواجهونها بصبر شديد لأجل أن تنتشر دعوة اللَّه ويسود الإيمان بين الناس٠

ولقد كان محمد - عليه الصلاة والسلام - مثالاً يحتذى به حتى فيما

واجهه من صعوبات أثناء تبليغ دعوة اللَّه إلى قومه ، وإلى كل العالمين من عرب وعجم وغيرهم.

ولولا صبر وحنان وحلم هذا النبى العظيم ، ولولا رعاية اللَّه له وتربيته الخالصة وخلقه العظيم .. لما قام الإسلام ، ولا كان فى الأرض السلام ، وذلك مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وطاعة الرسول هى طاعة اللَّه تعالى .. إذ هو المبلغ لكلام اللَّه وتعاليمه بلا تحريف أو إضافات.

ولقد حفلت كتب السيرة والتاريخ بالكثير مما واجهه النبى الكريم أثناء تبليغ دعوته لقومه .. ولكنه صبر وشكر وقاوم وحمد اللَّه ودعا لهم بالهداية والتوفيق ، فاستجاب اللَّه لدعوته .. فانتشر الإسلام .. وساد القرآن الكريم كل بقاع الأرض ولسوف يسود ويستمر إلى قيام الساعة.

وجدير بنا ونحن على مقربة من سيرة هذا النبى الكريم أن نقف على الشىء الكثير من سيرة حياته الأولى .. كمدخل حيوى آخر لحديث الابتلاءات السابق الإشارة إليه ، وقد حفلت عشرات الكتب بل المئات والآلاف منها بهذه السيرة العطرة ، إلا أننا هنا سوف نقتطف زهورًا يانعة كثيرة بها روائح طيبة .. من اسم وسيرة وحياة محمد ﷺ.

والبداية بالنسبة لهذا المقام .. تكون من الحديث عن زواج عبد اللَّه والد محمد - عليه الصلاة والسلام- من أمه آمنة بنت وهب ؛ إذ من المعروف أن عبداللَّه كان آخر أولاد عبد المطلب أحد سادة قريش آنذاك ، وكان ترتيبه العاشر فى الأولاد الذكور ، كما تذكر ذلك كل كتب التاريخ ..

وكان عبد المطلب جد النبى الكريم قد جاوز السبعين أو ناهزها حين حاول أبرهة مهاجمة مكة وهدم البيت العتيق ، وكان ابنه عبد اللَّه فى الرابعة والعشرين من عمره ، فرأى أن يزوجه ،

فاختار له آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أكبر بنى زهرة إذ ذاك سنًا وشرفًا[1].

وفى اليوم الذي تزوج فيه عبد اللّه من آمنة تزوج أبوه عبد المطلب من ابنة عمها هالة ، فولدت له حمزة عم النبى ، وأقام عبد اللّه مع آمنة فى بيت أهلها ثلاثة أيام على عادة العرب حين يتم الزواج فى بيت العروس ، فلما انتقل معها إلى منازل بنى عبد المطلب لم يقم معها طويلاً .. إذ خرج فى تجارة إلى الشام .. وتركها حاملاً. ومكث عبد اللّه فى رحلته هذه عدة أشهر كان يقضيها فى الذهاب من مكة إلى غزة والعودة منها ، وأثناء رحلته هذه المرة نزل على أخواله من بنى النجار بالمدينة ليستريح عندهم من وعثاء السفر وليقوم بعد ذلك عائدًا إلى مكة ، لكنه مرض هناك فتركه رفاقه حتى إذا ما بلغوا مكة أخبروا أباه بمرض ابنه عبد اللّه .. فما كان من أبيه إلا أن بعث أخاه الحارث أكبر أبناء عبد المطلب ليعود بعبد اللّه بعد شفائه ، وهناك فى المدينة علم الحارث أن عبد اللّه قد مات ودفن بها بعد شهر من مسير القافلة إلى مكة ، فرجع إلى هناك ينعى أخاه إلى أبيه وإلى زوجه آمنة.

ويؤكد الدكتور محمد حسين هيكل أن الأيام والأشهر تقدمت بعد ذلك بآمنة وبان حملها .. حتى وضعت كما تضع كل أنثى .. وكان وليدها غلامًا .. وقد اختار جده عبد المطلب اسم محمد لحفيده الوليد .. حيث يقال فى هذا السياق : إن عبد المطلب حين بلغه خبر ولادة حفيده .. أخذ آمنة وطفلها بين يديه وسار بهما حتى دخل الكعبة وسماه محمدًا ، وكان هذا الاسم غير متداول بين العرب لكنه كان معروفًا ثم رد الجد الصبى إلى أمه وجعل وإياها ينتظران المراضع من بنى سعد لتدفع الأم بوليدها إلى إحداهن على عادة أشراف العرب من أهل مكة.

---

(١) حياة محمد ، د. محمد حسين هيكل.

ولقد اختلف المؤرخون فى العام الذي ولد فيه محمد ﷺ .. فأكثرهم يرى أنه فى عام الفيل وذلك على قول ابن عباس ، ويقول آخرون إنه ولد قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة ، ويذهب غير هؤلاء إلى أنه ولد بعد عام الفيل بأيام أو أشهر أو سنين يقدرها قوم بثلاثين سنة ويقدرها قوم بسبعين. وكذلك اختلفوا فى الشهر الذي ولد فيه عليه الصلاة والسلام ، وإن كانت أقوالهم تؤكد على أنه ولد فى شهر ربيع الأول ، وقيل : ولد فى المحرم ، وقيل : فى صفر والبعض يرجح رجبَ .. على حين يرجح آخرون شهر رمضان.

ليس هذا فقط ، بل اختلف المؤرخون كذلك فى تاريخ اليوم من هذا الشهر ، والوقت الذي ولد فيه أنهارًا كان أم ليلاً ؟ كما اختلفوا فى مكان ولادته بمكة ، ويرجح « كوسان دبرسفال » فى كتابه عن العرب أن محمدًا ولد فى أغسطس عام ٥٧٠ ، أى عام الفيل ، وأنه ولد بمكة بدار جده عبد المطلب.

الابتلاء باليتم

نستطيع أن نقول فى هذا السياق أن نبى الإسلام والبشرية جمعاء محمدًا - عليه الصلاة والسلام - قد ذاق ويلات الابتلاء حتى من قبل أن يولد ، وقد مر علينا من قبل أن والده عبد اللّه قد مات بعد زواجه من آمنة ربما بثلاثة أشهر فقط ، وقد رحل وتركها حاملاً فيه ثم توفى دون أن يراه ، وهكذا جاء رسول اللّه إلى هذه الدنيا يتيم الأب .. ثم ما لبث أن اكتمل ذلك البلاء فى حياته .. حيث لحقت أمه آمنة بوالده ، فتوفيت بعد أن بلغ عمر وليدها خمس سنوات وعدة أشهر ، وكان محمد - عليه الصلاة والسلام - كما تحكى ذلك كتب السيرة ، قد عاد لتوه إلى مكة بعد غربة دامت خمس سنوات قضاها فى كنف مرضعته حليمة السعدية ، وأرادت أمه آمنة أن تأخذه فى رحلة إلى المدينة لزيارة أخواله هناك وزيارة قبر والده .. وهناك كان هذا النبى الكريم وخلال هذه المرحلة قد زاد حزنه وبلاؤه .. حيث وقف على قبر

والده الذي رحل دون أن يراه ·· وهو بجانب أمه التى جاءت به وكأنما تريد أن تطمئن هذا الزوج الراحل على هذا الصبى الكريم ، كما أرته أمه البيت الذي مات فيه والده والمكان الذي دفن به ، فكان ذلك على حد قول الدكتور هيكل أول معنى لليتم انطبع فى نفس هذا الصبى·

ولعل أمه حدثته طويلاً عن هذا الأب المحبوب الذي غادرها بعد مقامه معها أيامًا معدودات ليجيئه الأجل وهو مقيم فى أرض أخواله ، وكان النبى بعد هجرته يقص على أصحابه حديث تلك الرحلة الأولى إلى المدينة مع أمه حديث محب للمدينة محزون لمن تحوى القبور من أهلها·

وخلال هذه الرحلة أيضًا ·· أرادت آمنة أن تقيم بين أهل زوجها شهرًا ومن بعده أرادت العودة إلى مكة مرة أخرى· لكى تواصل حياتها هناك فى ظل كنف عبد المطلب ·· فركبت وركب من كان معها بعيريهما اللذين حملاهما من مكة ·· فلما كانوا فى أثناء الطريق بين البلدين وفى موضع يقال له «الأبواء» مرضت آمنة وماتت ودفنت هناك· وهذا الموضع الذي ماتت ودفنت به آمنة يبعد عن المدينة ٢٣ ميلاً·

ولما توفيت آمنة رجعت أم أيمن بمحمد - عليه الصلاة والسلام - وهو ينتحب طول الطريق حزنًا على فراق أمه ، وهو الذي كان منذ أيام يسمع من أمه الراحلة أنات الألم لفقدها أبيه· ولما عادت به أم أيمن ·· وهو فى هذه الحالة الحزينة ·· زاد حنان وحفاوة جده عبد المطلب به ، وقربه أكثر إلى نفسه ، ومع ذلك فقد بقيت ذكرى اليتم أليمة عميقة فى نفسه حتى أنها وردت فى القرآن الكريم إذ يذكر اللَّه نبيه بنعمته عليه فقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى** ﴾[الضحى: ٦،٧]·

ولقد حفل القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية بالعديد من الآيات والأحاديث

النبوية الشريفة ٠٠ عن اليتيم وفضل رعايته وتربيته والأخذ بيده فى ابتلائه ٠٠ مما يؤكد لدينا ما توصلنا إليه بشأن كون اليتم إحدى مصائب الزمن والتى من خلالها يختبر اللَّه عباده سواء الذين ذاقوا مرارته اليتم أو الذين يقفون موقف الرجال فى ظل هذا الابتلاء٠

ولقد كان رسول اللَّه ﷺ من أوائل عباد اللَّه الذين صبروا على الابتلاء باليتم ٠٠ حتى إن اللَّه تعالى قد ذكر ذلك فى القرآن الكريم ، وقد كافأه اللَّه بأفضل المكافآت حين صبر وشكر وتقبل قضاء اللَّه فى رحيل والديه ، حتى صار حبيبًا للرحمن وهاديًا لكل البشرية٠ وكان رسول اللَّه حتى من قبل بعثته محبوبًا بين أهله وعشيرته ، بل ومن كل أهل مكة الذين عرفوه بالصادق الأمين٠ ولم يكن ذلك اليتم عائقًا أمام حياته لكى يتوقف أو تأخذه الأحزان بعيدًا عن الرسالة التى أخذ يؤهله لها اللَّه رب العالمين٠

وكتب السيرة قد حكت لنا صورًا كثيرة من صور هذا الإعداد الربانى ٠٠ سواء وهو طفل أو وهو صبى أو وهو فتى يافع وحتى بلوغه سن الأربعين ، تلك السن التى بُعث فيها ، شأنه فى ذلك شأن كل الأنبياء والرسل٠

ونكاد نجزم وفق ما قرأناه ، أن رسول اللَّه ﷺ يعتبر هو النبى الوحيد الذي ابتلاه رب العالمين ٠٠ باليتم ، وقد مدحه اللَّه حين صبر فمن عليه بالخيرات ٠٠ والهداية ، كما ذكر ذلك القرآن الكريم٠

ولم يكن اليتم هو البلاء الوحيد الذي أصاب هذا النبى الكريم ، بل إنه وبعد مرور عدة سنوات قضاها هنيئًا فى ظل دفء زوجة وقفت معه موقف الرجال عندما أبلغها بما كان من شأن جبريل عليه السلام حين تجلى له وأخبره بنبأ السماء ، وبأنه اختير من قبل اللَّه رسولاً للبشرية كلها٠

أقول بعد هذه السنوات الطيبة التى عوضه اللَّه خلالها بالهدوء والسكينة والتفرغ للنظر فى ملكوت اللَّه ، أصيب هذا الرسول الكريم بالابتلاء الثانى حين

قضى رب العالمين على زوجه خديجة بأن ترحل وتتركه وحيدًا وهذا ما سنوضحه بعد لحظات.

الابتلاء فى الزوجة

وكان علينا من قبل الوقوف تفصيلاً على هذا الابتلاء الجديد فى حياة نبينا -عليه الصلاة والسلام - ضرورة معرفة ظروف زواجه من أم المؤمنين التى أخبره جبريل عليه السلام بأن الله يقرئ خديجة السلام وكذلك ظروف نشأته فى شبابه.

ويقول المؤرخون عن ذلك : إنه بعد بلوغ النبى الكريم ثمانية أعوام .. مات جده عبد المطلب .. فتحولت كفالته وتربيته إلى عمه أبى طالب. وكان رجلاً فقيرًا .. وقد أخذ يبحث لابن أخيه عن عمل يساعده من خلاله .. فعمل أولاً بمهنة الرعى ، ثم عندما بلغ الثالثة عشرة شارك فى قوافل التجارة ..

ولما بلغ علمه يومًا أن « خديجة بنت خويلد » - وهى من سيدات قريش ، وصاحبة تجارة واسعة .. وقوافل تجوب بها الشام ومصر - تستأجر رجالاً من قريش فى تجارتها فاقترح على ابن أخيه محمد أن يشارك فى هذه القوافل التجارية ، وقد أبلغها أبو طالب بنفسه رغبة ابن أخيه فى هذه المشاركة.

وكانت تلك بداية ذلك التعارف بين هذا الفتى العربى الذي كان يبلغ آنذاك خمسة وعشرين عامًا وبين السيدة خديجة التى كانت فى الأربعين من عمرها.

ولقد توسع المؤرخون فى ذكر تفاصيل كثيرة عن هذه السيدة الفاضلة نظرًا لارتباطها بسيد الخلق أجمعين ، وقد كانت امرأة غنية ذات شرف ومال ، وكانت من بنى أسد ، كما أنها كانت متزوجة من قبل مرتين فى بنى مخزوم مما جعلها من أوفر أهل مكة غنى ، وكانت تقوم على مالها بمعونة أبيها خويلد. كما ذكر المؤرخون كذلك أن هذه السيدة قد ردت خطبة الذين خطبوها من كبار قريش؛

لأنها كانت على يقين من أنهم ينظرون إلى مالها ، لذلك اعتزمت أن توقف جهودها فقط على تنمية ثروتها.

ويصور لنا الدكتور هيكل لحظات الإعجاب بين هذا الشاب الصادق الأمين وبين هذه المرأة التى انقلب إعجابها به إلى حب ورغبة فى الزواج منه فيقول : فلما بلغت القافلة الظهران فى طريق عودتها قال ميسرة غلام خديجة : يا محمد انطلق إلى خديجة وأسرع فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف ذلك لك ، وانطلق عليه الصلاة والسلام حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة ، وكانت خديجة فى علية لها ، فرأته وهو على بعيره ونزلت حين دخل دارها واستقبلته واستمعت إليه يقص خبر رحلته بعبارته البليغة الساحرة ، كما أخبرها بربح تجارته وما جاء به من صناعة الشام ، وهى تنصت مغتبطة مأخوذة ، وأقبل ميسرة من بعد فروى لها عن محمد ورقة شمائلة وجمال نفسه ما زادها علمًا فوق علم وفوق ما كانت تعرف من فضله على شباب مكة ، ولم يكن ذلك إلا رد الطرف كما يقول الدكتور هيكل حتى انقلبت غبطتها حبا جعلها وهى فى الأربعين من سنها ، وهى التى ردت من قبل أعاظم قريش شرفًا ونسبًا ، تود أن تتزوج من هذا الشاب الذي نفذت نظرته ونفذت كلماته إلى أعماق قلبها ..

ولقد تحدثت فى هذا الشأن إلى أختها ، وإلى صديقتها « نفيسة بنت منبه » على قول آخر ، والتى ذهبت تستكشف رغبة هذا الشاب فى أمر هذا الزواج ، فوجدته لا يمانع ذلك ، عندئذ دعته مع أعمامه ليحدد موعد الزواج ، وقد زوجها عمها عمر بن أسد ؛ لأن خويلدًا كان قد مات قبل حرب الفجار.

ويؤكد الدكتور هيكل أنه بهذا الزواج السعيد بدأت صفحة جديدة من حياة محمد - عليه الصلاة والسلام - حياة الزوجية والأبوة التى تعرف من الآلام لفقد الأبناء ما عرف محمد - عليه الصلاة والسلام - فى طفولته لفقد الآباء ، وهذا ما سوف نتحدث عنه بالتفصيل عند الحديث عن الابتلاء الثالث فى حياة هذا النبى الكريم بفقد أولاده.

وكلنا بطبيعة الحال يعرف ويعلم ذلك الدور العظيم الذي لعبته هذه السيدة العظيمة فى حياة الدعوة الإسلامية وفى حياة محمد - عليه الصلاة والسلام - ويكفيها شرفًا أنها كانت أول من آمن برسالة محمد ، حين أخبرها بنزول الوحى بل وأكثر من ذلك فقد كانت له السند والمعين والمشجع القوى على المضى قدمًا فى طريق تبليغ الدعوة الإسلامية دون النظر لما كان يعترضه من مشاكل وصعوبات ، وقد نذرت مالها لتأييد زوجها فى نشر دعوته إلى الإسلام ، لذلك كانت - على حد قول الدكتور هيكل - أول من سارع إلى الإيمان به وقد جربت عليه طول حياته الأمانة والصدق وعلو النفس وحب البر والرحمة.

وكانت هذه السيدة العظيمة إضافة إلى ذلك أمًا لأولاده سواء من البنين أو البنات .. فقد أنجب منها من الأبناء القاسم وعبد اللّه الملقبين بالطاهر والطيب، ومن البنات زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.

وظلت هذه السيدة العظيمة تعيش بجوار زوجها النبى الكريم ، فى ظل معوقات الدعوة الإسلامية ، وفى ظل ما كان يلقاه هذا الزوج الكريم من صعوبات ، صابرة محتسبة أمرها وجهادها عند ربها ، حتى توفاها اللّه.

وقد تركت أثرًا كبيرًا برحيلها حيث افتقد هذا النبى الحب والحنان والقوة والمساندة ، ومما زاد من حزنه الشديد على رحيلها .. أن عمه عبد المطلب كان قد سبقها إلى الرحيل ، وكان الأمر بينه وبين قريش أشد مما كان ، وقد خرج لتوه - عليه الصلاة والسلام - من حصار شعب مكة الذى استمر ثلاث سنوات ، فلم يكد على حد قول أحمد بهجت يتنفس الصعداء بعد أعوام هذا الحصار ويعود لاستئناف حياته ودعوته حتى فوجئ بوفاة زوجه أم المؤمنين خديجة - رضى اللّه عنها - هذه السيدة التى كانت واحة النبى وملاذه ، وهى القلب الرحيم الذي احتضنه قبل الرسالة واحتضن آلامه بعد الرسالة ، وكانت له نعم الرفيق والزوج والصديق والخادم.

وحزن رسول اللَّه ﷺ عليها حزنًا شديدًا وعميقًا حتى سمى المؤرخون هذا العام بعام الحزن.

ولما صبر هذا النبى على هذا الابتلاء إلى جانب صبره الكبير على قومه من الذين آذوه من المشركين. فرج اللَّه عنه حزنه، وجعل منه بابًا مباركًا يدخل من خلاله هذا النبى الكريم إلى معية اللَّه، إذ قدر له أن يركب البراق ويعيش ساعات طيبة بجوار رب العالمين. فى رحلة المعراج، تلك الرحلة العلوية التى كرم بها اللَّه نبيه جزاء ما قاساه فى نفسه وفى سبيل الدعوة الإسلامية، وكانت بذلك أول رحلة لإنسان يخترق بها السماوات العلا وحتى سدرة المنتهى.

الابتلاء فى الأولاد

كنت ولفترة ليست ببعيدة عن توقيت التفكير فى إصدار هذه الأوراق أحسب أن سيدنا محمدًا - عليه الصلاة والسلام - .. كان قد أنجب ولدًا واحدًا هو إبراهيم عليه السلام .. إلى جانب بناته الأربع .. وكذلك كنت أحسب أن هذا النبى الكريم قد ابتلاه اللَّه واختبره فى رحيل هذا الابن العزيز، لولا أن تداركتنى رحمة اللَّه .. فعرفت فى الوقت المناسب أن نبينا الكريم عليه السلام، قد ابتلاه رب العالمين فى رحيل طفلين له من قبل أن يبعث برسالة الإسلام، وكذلك ابتلاه ربه فى رحيل ابنته العزيزة زينب - رضى اللَّه عنها -.

ولقد قلنا من قبل إن هذا النبى الكريم - عليه الصلاة والسلام - قد أنجب من زوجه الأولى .. خديجة بنت خويلد - رضى اللَّه عنها .. ولدين هما القاسم وعبد اللَّه الذي كان يلقب بالطيب، هذان الطفلان ماتا فى الجاهلية قبل أن يبعث رسولنا الكريم بالرسالة المحمدية.

وبرحيل هذين الطفلين تجددت فى قلب هذا النبى أحزان الماضى، حين رحل عنه من قبل كل من أبيه وأمه وجده عبد المطلب وكذلك عمه أبو طالب،

وكلها شخصيات كانت على جانب كبير من الأهمية فى حياة محمد - عليه الصلاة والسلام - وقد ترك رحيلها آثارًا عميقة داخل نفس النبى الكريم ، الذي عاش فى ظل اليتم منذ طفولته ، بل ومن قبل أن يولد عليه الصلاة والسلام.

ويؤكد الدكتور هيكل فيما رواه عن رحيل هذين الطفلين أن رحيلهما قد ترك أثرًا عميقًا فى نفس أبويهما أكثر مما يتركه موت ابن من تأثير كبير فى نفس والديه ، كما ترك موتهما من غير شك فى نفس خديجة ما جرح أمومتها جرحين داميين ، وقد شعر معها زوجها لا ريب بالألم لوفاة ابنيه.

كما حز فى قلبه هذا الألم الحى ممثلة صورته فى زوج يراها كلما عاد إلى بيته وجلس إليها ، وقد دفعه هذا الحزن إلى أن طلب من خديجة أن تشترى له زيد ابن حارثة ثم أعتقه وتبناه ، فكان يدعى زيد بن محمد ، واستبقاه ليكون من بعد خيرة أتباعه وصحبه.

كما يؤكد الدكتور هيكل أن محمدًا - عليه الصلاة والسلام - قد زاد حزنه وابتلاؤه حين مات ولده إبراهيم عليه السلام.

ويرى الدكتور هيكل أن ما أصاب محمدًا فى بنيه هو جدير بأن يترك فى حياته وتفكيره أثرًا لا ريب فى أنه استوقفه ولفت نظره فى كل واحدة من هذه الفواجع وما كانت خديجة تتقرب به إلى أصنام الكعبة من قبل البعث تريد أن تتفادى ما ألم بها من ألم الثكل ، فلا تفيد القرابين ولا تجدى النحور.

ومما يرى فى سياق ما ألم بالنبى من ابتلاءات فى شأن أولاده أنه - صلى الله عليه وسلم - لم ينجب إلا من السيدة خديجة رضى الله عنها ، وماريا القبطية رغم أنه - عليه الصلاة والسلام - قد تزوج من أكثر من امرأة. لذلك نجد أن ألمه كان شديدًا وحزنه كان كبيرًا .. ولكن رحمة الله كانت واسعة ، فتقبل النبى الكريم هذا الابتلاء فى صبر وتجلد ، بلا شكوى أو جزع.

وقد سبق رحيل ابنه إبراهيم ، ابنته الكبرى زينب رضى اللَّه عنها متأثرة بجراح ذلك الحادث الذي وقع لها من قبل ، عندما أذاها الحويرث وهبار حين خروجها من مكة أذى أوقعها فأجهضها .. وقد ظلت عليلة الصحة بعد هذا الحادث، وزاد مرضها حتى توفيت ، وكانت قد سبقتها إلى الرحيل كل من أم كلثوم ورقية ، ولم يبق للنبى من أولاد سوى فاطمة فقط من قبل أن يولد له إبراهيم عليه السلام.

ولقد حزن النبى - عليه الصلاة والسلام - حزنًا شديدًا لفقدانه أولاده البنات ومن قبلهن ابنيه القاسم وعبد اللَّه .. وقد أراد اللَّه أن يفرح قلبه فرزقه من جاريته « ماريا القبطية » التى منحها إياه المقوقس عظيم مصر آنذاك ، فلم يطل به اللَّه انتظار الأسى واستمرار الحزن ، على حد قول الدكتور هيكل فرزقة من « ماريا القبطية » غلامًا دعاه إبراهيم تيمنًا باسم إبراهيم جد الأنبياء الحنيف المسلم.

وكانت ماريا يومئذ ومنذ أهداها المقوقس إلى النبى فى مرتبة السرارى ، فلم يكن لها من أجل ذلك منزل بجوار المسجد كما كان لأزواج النبى أمهات المؤمنين ، بل أنزلها الرسول الكريم بالعالية إحدى ضواحى المدينة فى المحل الذي يقال له الآن « مشربة أم إبراهيم » ، بمنزل يحيط به الكروم.

وكان رسول اللَّه يختلف إليها كما يزور الرجل ملك يمينه ، وكان قد اختارها حين أهداها المقوقس إليه مع أختها « سيرين » التى تزوجها حسان بن ثابت.

ويؤكد بعض الرواة أن رسول اللَّه لم يكن يرجو أن يعقب من أى من زوجاته بعد رحيل أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وقد تزوج من بعدها تسع زوجات لم يكن بينهن بكر إلا عائشة - رضى اللَّه عنها - التى تزوجها وهى فى التاسعة من عمرها ، فلما حملت ماريا ثم ولدت إبراهيم وقد تخطى رسول اللَّه بذلك الستين من عمره .. امتلأ قلبه فرحًا وسرورًا ، وارتفعت ماريا بهذا الميلاد إلى مكانة أزواجه.

ويصور لنا الرواة مدى الحب والغبطة التى أصابت رسول اللَّه حين جاءه إبراهيم عليه السلام كنعمة من ربه وفضل ، بعدما قارب الستين من عمره ، فيقولون : حمل النبى ﷺ ابنه إبراهيم يومًا بين ذراعيه وهو فياض البشر ، وذهب به إلى زوجه عائشة وقد دعاها لترى ما بين إبراهيم وبينه من عظيم الشبه ، فنظرت عائشة إلى الطفل وقالت إنها لا ترى بينهما شبهًا.

ولما رأت النبى فرحًا بنمو الطفل لاحظت فى غضب أن كل طفل ينال من اللبن ما يناله إبراهيم يكون مثله أو خيرًا منه نموا ، وكذلك كان مولد إبراهيم قد آثار فى زوجات النبى امتعاضًا لم يقف أثره عند هذه الإجابات الجافية بل تعداها إلى أكثر من ذلك(١).

ولذلك حينما رحل هذا الطفل حزن عليه النبى الكريم حزنًا شديدًا ظل يملك عليه نفسه ، ولم يخرجه من هذا الحزن سوى تمسكه برحمة اللَّه .. وبأن اللَّه على كل شىء قدير ، فقد منحه الأولاد والبنات الذين فرح بهم ، ثم أخذهم منه فصبر وشكر .. فعوضه اللَّه عنهم خيرًا .. ثم آتاه ولدًا فى صورة جميلة ، قال عنها المؤرخون إنه كان يشبه النبى إلى حد كبير ، وقد أثار لذلك غيرة وحقد زوجاته ، ثم سرعان ما مات هذا الولد أيضًا .. فلم يجزع نبى اللَّه ولم يضق صدره ، وكان هو ذلك الحليم الذي كان يذهب إلى أطراف المدينة على حد قول الدكتور هيكل وإلى ضواحيها ليعود المريض ويواسى البائس .. ويداوى جراح الكليم ، فإذا أصابه المقدر فى ابنتيه بعدما أصابه من قبل فى أختيها وكما أصابه من قبل رسالته فى أخويها ، فلا جرم أن يحزن ويشتد به الحزن بعد وفاة ابنه إبراهيم ، وإن وجد من بر اللَّه ورفقه به ما يعزيه كيما يسلو.

إن العبرة الطيبة من وراء الوقوف على تفاصيل ابتلاء نبى اللَّه محمد - عليه

---

(١) حياة محمد ، مصدر سابق.

الصلاة والسلام - سواء فى نفسه أو فى زوجه وأولاده. لابد وأن تفرض نفسها على القلوب قبل النفوس ، وتجعل المرء منا يتوقف كثيرًا أمامها وأمام حالات ابتلاء الأنبياء من قبل ؛ لأجل أن يستفيد منها ، فى مجالات الصبر والشكر والرضا بالابتلاء ، والاقتناع والإيمان بقول اللَّه تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾.

ولمن لايريد إلا أن يصبر نقول : إن أمر اللَّه واقع ، وقضاءه لا مفر منه ، والإيمان به هو عين الإيمان ، ولقد لخص لنا اللَّه - تعالى - كل هذه الأمور فى حديثه القدسى الشريف الذي يقول فيه : « من لم يرض بقضائى فليخرج من تحت سمائى وليعبد ربًّا سواى »

تم بحمد اللَّه ،،

* * *